الفصل السادس

خاتمـــــة المطاف

آن للرحلة المباركة أن تبلغ مداها ..

لقد أدى رسول اللّه ﷺ الأمانة ، وبلّغ الرسالة ، ونصح للأمة ، وجاهد - صلى اللّه عليه وسلم - فى اللّه حق جهاده ، وأقام المسلمين على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .

قضى - صلى اللّه عليه وسلم - على عبادة الأوثان فى الجزيرة العربية ..

وأرسى دعائم التوحيد فى أرض الشرك والضلال ..

وأقام دولة الإسلام قوية الدعائم راسخة البنيان ..

وأكمل اللّه تعالى به الدين ، وأتم النعمة ، ورضى لنا الإسلام ديناً ..

وآن للرسول ﷺ أن يلقى ربه .

أقام صلى اللّه عليه وسلم بعد رجوعه من تبوك - بقية رمضان وشوّال وذا القعدة سنة ٩ هـ - ثم بعث أبا بكر رضى اللّه عنه أميراً على الحج ليقيم للناس حجهم ، وأهل الشرك على دينهم ومنازلهم من حجهم ، فخرج أبو بكر فى ثلاثمائة من المدينة . وبعث معه صلى اللّه عليه وسلم بعشرين بدنة قلّدها وأشعرها بيده .

ثم نزلت سورة التوبة فى نقض ما بين رسول اللّه ﷺ وبين المشركين من العهد الذى كانوا عليه ، فأرسل بها علىّ بن أبى طالب كرّم اللّه وجهه على ناقته العضباء ، ليقرأ « التوبة » على الناس ، وينبذ إلى كل ذى عهد عهده .

يقول الله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ ... إلى قوله جَلَّ شأنه : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ، فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (١) ... إلى آخر الآيات ..

فلما لقى أبا بكر قال له : « أمير أو مأمور » ؟ فقال علىّ : بل مأمور .

فلما كان يوم النحر قام علىّ بن أبى طالب فقال : « يا أيها الناس ، لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومَن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته » .

وإنما أخّر رسول الله ﷺ حجه ، وبعث أبا بكر رضى الله عنه ليحج بالناس : لما كانت عليه العرب من الجاهلية الفاسقة ، ولإعلانهم بشركهم فى مشاعر الحج ، وطوافهم بالبيت عراة ، وإنسائهم الذى كان يقع به الحج فى غير ميقاته ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع : « إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » .

ثم إنّ الهدنة كانت لا تزال قائمة بين رسول الله ﷺ وبين قريش وغيرهم من المشركين ، فكان ذلك سبباً فى تأخير رسول الله ﷺ حجه ، حتى نزلت سورة التوبة ، فنبذ إليهم عهدهم ، وأعلمهم أن البيت قد أصبح فى حكم دولة التوحيد ، وأصبح الأمر فيه إلى رسول الله ﷺ ، وأعلن أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

* * *

---

(١) التوبة : ١ - ١٨

● حجة الوداع :

لما دخل ذو القعدة من السنة العاشرة ، تجهز رسول الله ﷺ للحج ، وأمر الناس بالجهاز له ، وأمرهم أن يلقوه ، فخرج معه مَن كان حول المدينة وقريباً منها . وخرج المسلمون من القبائل القريبة والبعيدة حتى لقوه فى الطريق ، وفى مكة ، وفى منى وعرفات ، وجاء علىّ من اليمن مع أهل اليمن ، وهى حجة الوداع .

فخرج لها لخمس بقين من ذى القعدة ، فمضى رسول الله ﷺ وساق معه الهَدْى . فأرى الناسَ مناسكهم ، وعلّمهم سُنن حجهم ، وهو صلى الله عليه وسلم يقول لهم ويكرر عليهم : « أيها الناس ، خذوا عنى مناسككم ، فلعلكم لا تلقونى بعد عامكم هذا » .

ولما كان - صلى الله عليه وسلم - بمنى ، خطب الناس خطبته التى بيّن فيها ما بيّن .. فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ، اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا .

أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم .

وكل رِباً موضوع ، وأول رباً أضعه : ربا العباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله .

وإن كل دم فى الجاهلية موضوع ، وأول دم أضعه : دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

وإنى تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لم تضلوا - كتاب الله - وأنتم مسئولون عنى ، فما أنتم قائلون » ؟

قالوا : نشهد أنك بلّغتَ ، وأديّتَ ونصحتَ .

فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكبها إليهم ويقول : « اللّهم اشهد » - ثلاث مرات .

وكانت هذه الحجة تسمى « حجة الوداع » لأنه صلى الله عليه وسلم لم يحج بعدها ، ولأن المسلمين اجتمعوا له فى الحج ، فقد علّمهم صلى الله عليه وسلم شرائع الإسلام ، فى خطبه أيام الحج ، ووادعهم فيها ، إذ كان يكرر القول : « لعلكم لا تلقونى بعد عامكم هذا » .

فلما قضى صلى الله عليه وسلم حجه ، رجع إلى المدينة ، فأقام بقية ذى الحجة والمحرّم وصفر .

ثم ابتدأ برسول الله ﷺ وجعه الذى مات فيه فى آخر صفر سنة ١١ هـ [1] .

* * *

● مرضه - صلى الله عليه وسلم - وبعثه أسامة إلى البلقاء :

ولما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة أحد عشرة ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بالتهيؤ لغزو الروم ، فلما كان من الغد دعا أسامة ابن زيد ، وأمره أن يسير إلى موضع مقتل أبيه زيد بن حارثة ، وأن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، فتجهز الناس ، وأوعب مع أسامة المهاجرون والأنصار .

ثم استبطأ رسول الله ﷺ الناس فى بعث أسامة - وهو فى وجعه - فخرج عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر - وكان المنافقون قد قالوا فى إمارة أسامة : أمَّر غلاماً حَدَثاً على جُلّة المهاجرين والأنصار . فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً ، وخرج عاصباً رأسه - وكان قد بدأ به الوجع - فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ، أنفذوا بعث أسامة ، فلئن طعنتم فى إمارته فقد طعنتم فى إمارة أبيه ، وإيم الله إن كان خليقاً للإمارة ، وأن ابنه من بعده لخليق للإمارة ، وإن كان أبوه لمن أحب الناس إلىّ ، وإن هذا لمن أحب الناس إلىّ من بعده » .. ثم نزل .

---

(١) انظر : مختصر سيرة الرسول ، للإمام محمد بن عبد الوهاب - مرجع سابق - ص ١٨٥ وما بعدها .

وانكمش الناس فى جهازهم ، فاشتد برسول الله ﷺ وجعه ، وخرج أسامة بجيشه فعكسر بالجُرف ، وتتام إليه الناس ، فأقاموا لينظروا ما الله تبارك وتعالى قاض فى رسوله ﷺ .

● وعن أسامة قال : « لما ثقل برسول الله ﷺ ، هبطتُ وهبط الناس معى إلى المدينة ، فدخلت على رسول الله ﷺ وقد أُصمت فلا يتكلم ، وجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها علىّ .. أعرف أنه يدعو لى » (١) .

* *

● وعن أبى مويهبة - مولى رسول الله ﷺ قال : « بعثنى رسول الله ﷺ من جوف الليل فقال : « يا أبا مويهبة ، قد أُمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع ، فانطلق معى » . فانطلقت معه ، فلما وقف عليهم قال : « السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم فيما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن مثل قطع الليل المظلم ، يتبع أخراها أولاها ، الآخرة شر من الأولى » .. ثم أقبل علىّ فقال : « إنى قد أعطيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، فخُيِّرتُ بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة » ، فقلت : بأبى أنت وأمى ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا وتُخلَّد فيها ، ثم الجنة . قال : « لا واللهِ ، يا أبا مويهبة ، قد اخترت لقاء ربى والجنة » .. ثم استغفر لأهل البقيع ، ثم انصرف » (٢) .

فبدأ به وجعه ، فلما استعزَّ به ، دعا نساءه فاستأذنهن : أن يُمرَّض فى بيت عائشة رضى الله عنها ، فأذِنّ له .

* *

● وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : « إنّ الله خيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند الله » .

فبكى أبو بكر ، فتعجبنا لبكائه : أن يُخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيِّر !

---

(١) رواه ابن إسحاق .

(٢) رواه ابن إسحاق .

فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر ، وكان أبو بكر أعلمنا . فقال رسول الله ﷺ : « إنَّ من أمَنِّ الناس عليَّ فى صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً - غير ربى - لاتخذتُ أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام ومودّته ، لا يبقين فى المسجد باب إلا سُدّ ، إلا باب أبى بكر » .

* *

● وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (١) قال رسول الله ﷺ : « نعيت إلىّ نفسى ، فإنى مقبوض فى تلك السنة » (٢) .

* *

● وعن العباس رضى الله عنه قال : دخلتُ على رسول الله ﷺ وعنده نساء ، فاستترن منى إلا ميمونة ، فقال : « لا يبقى فى البيت أحد شهد اللَّد (٣) إلا لُدّ إلا أن يمينى لم تصب العباس » .

ثم قال : « مروا أبا بكر أن يصلى بالناس » ، فقالت عائشة لحفصة : قولى له . إنّ أبا بكر رجل إذا قام مقامك بكى ، فقال : « مروا أبا بكر ليصل بالناس » ، فقام فصلى ، فوجد النبى ﷺ خفة ، فجاء ، فنكص أبو بكر ، فأراد أن يتأخر ، فجلس إلى جنبه ثم اقترأ (٤) .

وفى رواية عنه : أن رسول الله ﷺ قال فى مرضه : « مروا أبا بكر يصلى بالناس » ، فخرج أبو بكر فكبّر ، ووجد النبى ﷺ راحة ، فخرج يهادى بين

---

(١) النصر : ١ (٢) رواه أحمد فى المسند (١٨٧٣) .

(٣) اللَّد - بفتح اللام وتشديد الدال . العلاج باللدود - بفتح اللام ، وهو دواء يُصَبّ فى أحد شقى الفم ، وكان رسول الله ﷺ أشار إليهم ... أرادوا به أن لا يلدوه ، فظنوا أنه من ضيق المريض بالدواء ، فلدوه على إبائه إياه . (٤) رواه أحمد فى المسند (١٧٨٤) .

رجلين ، فلما رآه أبو بكر تأخر ، فأشار إليه النبى ﷺ : مكانك ، ثم جلس رسول الله ﷺ إلى جنب أبى بكر ، فاقترأ من المكان الذى بلغ أبو بكر من السورة [1] .

وفى الصحيح عن أبى موسى الأشعرى قال : « اشتد مرض رسول الله ﷺ ، فقال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » قالت عائشة : يا رسول الله ، إنه رجل رقيق ، إذا قام مقامك لا يُسمع الناس ، فلو أمرتَ عمر ؟ قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » ، فعادت . فقال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فإنكن صواحب يوسف » [2] ، فأتاه الرسول فصلى بالناس فى حياة النبى ﷺ .

تقول عائشة رضى الله عنها : ووالله ما أقول إلا أنى أحب أن يُصرف ذلك عن أبى بكر ، وعرفت أن الناس لا يحبون رجلاً قام مقامه أبداً ، وأن الناس سيتشاءمون به فى كل حَدَث كان ، فكنت أحب أن يُصرف ذلك عن أبى بكر .

* *

● وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كشف رسول الله ﷺ عن الستارة والناس صفوف خلف أبى بكر فقال : « أيها الناس ، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له » .

ثم قال : « ألا إنى نُهيتُ أن أقرأ راكعاً أو ساجداً ، فأما الركوع فعظّموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء فقمن أن يُستجاب لكم » [3] .

* *

● وفى الصحيح : أن ابن عباس وأبا بكر رضى الله عنهما مرّا بمجلس للأنصار ، وهم يبكون فقالا : ما يبكيكم ؟ قالوا : ذكرنا مجلس رسول الله ﷺ منا ، فدخل على النبى ﷺ فأخبره بذلك ، فخرج وقد عصب على رأسه بحاشية بُرْد ، فصعد المنبر - ولم يصعده بعد ذلك اليوم - فحمد الله وأثنى عليه ، ثم

---

(١) رواه أحمد فى المسند (١٧٨٥) .

(٢) أى تظهرن غير ما تكتمن .

(٣) رواه أحمد فى المسند (١٩٠٠) .

قال : « أُوصيكم بالأنصار خيراً ، فإنهم كرِشى وعَيبتى ، وقد قضوا الذى عليهم ، وبقى الذى لهم ، فاقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم » .

* *

● وعن سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس رضى الله عنهما : يوم الخميس ، وما يوم الخميس ؟! ثم بكى حتى بلّ دمعه الحصى ، قلنا : يا أبا العباس ، وما يوم الخميس ؟ قال : اشتد برسول الله ﷺ وجعه ، فقال : « ائتونى أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً » ، فتنازعوا ، ولا ينبغى عند نبى تنازع ، فقالوا : ما شأنه ؟ أهجر ؟ [1] - قال سفيان : يعنى هذى - استفهموه ، فذهبوا يعيدون عليه فقال : « دعونى ، فالذى أنا فيه خير مما تدعونى إليه » ، وأمر بثلاث - وقال مرة : أوصى بثلاث - قال : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم » - وسكت سعيد عن الثالثة ، فلا أدرى أسكت عنها عمداً أو نسيها - وقال مرة : وإما أن يكون تركها أو نسيها [2] .

وروى أن الوصية التى سكت عنها سعيد بن جبير فى حديث ابن عباس ، إما الوصية بالقرآن ، وإما تجهيز جيش أسامة ، وإما قوله : « لا تتخذوا قبرى وثناً » ، وإما قوله : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » .. فقد أوصى صلى الله عليه وسلم بذلك كله فى أحاديث صحيحة .

* *

● وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما حضر رسول الله ﷺ قال : « ائتونى بكتف أكتب لكم فيه كتاباً لا يختلف منكم رجلان بعدى » ، قال : فأقبل القوم فى لغطهم ، فقالت المرأة : ويحكم ، عهد رسول الله ﷺ !! [3] .

* *

---

(١) أى اختلف كلامه بسبب المرض ، على سبيل الاستفهام ، أى : هل تغير كلامه لأجل ما به من المرض .

(٢) رواه أحمد فى المسند (١٩٣٥) .

(٣) رواه أحمد فى المسند (٢٦٧٦) .

● وعن علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه قال : أمرنى النبى ﷺ أن آتيه بطبق [1] يكتب فيه ما لا تضل أمته من بعده ، قال : فخشيت أن تفوتنى نفسه ، قال : قلت : إنى أحفظ وأعى ، قال : « أوصى بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم » [2] .

* *

● وعن ابن عباس ، وعن عائشة رضى الله عنهما أنهما قالا : لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يلقى خميصة على وجهه ، فلما اغتم رفعناها عنه وهو يقول : « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » - تقول عائشة : يحذرهم مثل الذى صنعوا [3] .

كان رسول الله ﷺ يعانى من المرض أشده ، حتى إن أحد صحابته - رضوان الله عليهم - ليدخل عليه فى مرضه وعليه قطيفة ، فيضع يده فوق القطيفة فيجد فيح الحمّى فيقول : ما أشد حُمّاك يا رسول الله ! فيقول صلى الله عليه وسلم : « إنّا كذلك يُشدّد علينا البلاء ويُضاعَف لنا الأجر » .

وكان صلى الله عليه وسلم - من شدة ما يجد من الحُمّى - يأمر بالسقاء فيعلق على شجرة ، ثم يضطجع تحته ليقطر الماء على رأسه . كما كما يتقلب على فراشه من شدة المرض ويقول : « إن أشد الناس بلاءً الأنبياء » .

ومع هذا ، كان شغله الشاغل أمور المسلمين ، فيهتم بإرسال بعث أسامة لحرب الروم ، ويهتم بصلاتهم وإمامة أبى بكر لهم ، ويوصى بإخراج المشركين من جزيرة العرب ، وإجازة الوفد بنحو ما كان يجيزهم ، كما يوصى بالقرآن ، وبالصلاة ، وبالزكاة ، وبما ملكت الأيمان .. ويحذر المسلمين من اتخاذ قبره وثناً .. كل ذلك ليستقيم أمر المسلمين من بعده ، فلا يزيغون أو يضلون ، وحتى تبقى راية التوحيد مرفوعة .

* * *

---

(١) الطبق - بفتحتين : عظم رقيق يفصل بين الفقارين ، وكانوا يكتبون على العظام ونحوها .

(٢) رواه أحمد فى المسند (٦٩٣) .

(٣) رواه أحمد فى المسند (١٨٨٤) .

● وفاة الرسول ﷺ :

قال الزهرى : حدثنى أنس رضى الله عنه قال : « كان يوم الاثنين الذى قُبِض فيه رسول الله ﷺ ، خرج إلى الناس ، وهم يصلون الصبح ، فرفع الستر وفتح الباب ، فخرج رسول الله ﷺ فقام على باب عائشة رضى الله عنها ، فكاد المسلمون يفتتنون فى صلاتهم - فرحاً به حين رأوه وتفرجوا عنه - فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم . قال : وتبسم رسول الله ﷺ سروراً ، لما رأى من هيأتهم فى صلاتهم ، وما رؤى أحسن منه هيئة تلك الساعة . قال : ثم رجع ، وانصرف الناس وهم يرون أنه قد أفرق من وجعه ، وخرج أبو بكر إلى أهله بالسُّنْح ، فتوفى رسول الله ﷺ حين اشتد الضحى من ذلك اليوم » .

* *

● وعن ابن عباس رضى الله عنه : أن علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه خرج من عند رسول الله ﷺ فى وجعه الذى توفى فيه ، فقال الناس : يا أبا الحسن ، كيف أصبح رسول الله ﷺ ؟ فقال : أصبح بحمد الله بارئاً . قال ابن عباس : فأخذ بيده العباس بن عبد المطلب فقال : ألا ترى أنت والله ؟ إنّ رسول الله ﷺ سيتوفى فى وجعه هذا ، إنى أعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، فاذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر ، فإن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان فى غيرنا كلمّناه فأوصى بنا .

فقال علىّ : والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس أبداً ، فوالله لا أسأله أبداً [1] .

* *

● وعن عائشة رضى الله عنها قالت : فتح رسول الله ﷺ باباً بينه وبين الناس - أو كشف ستراً - فإذا الناس يصلون وراء أبى بكر ، فحمد الله على

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٢٣٧٤) .

ما رأى من حُسْن حالهم رجاء أن يخلفه فيهم بالذى رآهم فقال : « يا أيها الناس ، أيما أحد من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعز بمصيبته بى عن المصيبة التى تصيبه بغيرى ، فإنَّ أحداً من أمتى لن يصاب بمصيبة بعدى أشد عليه من مصيبتى » (١) .

* *

● وعنها رضى اللّه عنها قالت : إن من نعمة اللّه علىّ أن رسول اللّه ﷺ توفى فى يومى وفى بيتى ، وبين سَحْرى ونَحْرى ، وأن اللّه جمع بين ريقى وريقه عند الموت .

قالت : دخل علىّ أخى بمسواك معه وأنا مسندة رسول اللّه ﷺ إلى صدرى ، فرأيته ينظر إليه ، وقد عرفتُ أنه يحب السواك ويألفه ، فقلت : آخذه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فليَّنته له فأمرَّه على فيه . قالت : وبين يديه ركوة - أو علبة - فيها ماء ، فجعل يدخل يده فى الماء فيمسح بها وجهه ثم يقول : « لا إله إلاَّ اللّه ، إنَّ للموت سكرات » .. ثم نصب أصبعه اليسرى وجعل يقول : « فى الرفيق الأعلى .. فى الرفيق الأعلى » حتى قُبِض ومالت يده فى الماء » (٢) .

وفى رواية لأحمد عن عائشة رضى اللّه عنها قالت : « مات رسول اللّه ﷺ بين سَحْرى ونَحْرى وفى دولتى ، ولم أظلم فيه أحداً ، فمن سفهى وحداثة سنى أن رسول اللّه ﷺ قُبِض وهو فى حجرى ، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمتُ ألدم مع النساء وأضرب وجهى » (٣) .

* *

● وذكر الواقدى عن شيوخه قالوا : « ولما شك فى موت النبى ﷺ فقال بعضهم : مات ، وقال بعضهم : لم يمت ، وضعت أسماء بنت عميس يدها بين

---

(١) رواه ابن ماجه . (٢) رواه البيهقى . (٣) رواه أحمد فى المسند .

كتفى رسول الله ﷺ فقالت : قد توفى رسول الله ﷺ ، وقد رُفِع الخاتم من بين كتفيه ، فكان هذا الذى عُرِف به موته » [1] .

وكانت وفاته صلى الله عليه وسلم فى ضحى يوم الاثنين الثالث عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة الموافق (٨ يونية سنة ٦٣٢ م) بعد أن حمل الأمانة وبلّغ الرسالة ، ودفن فى يوم الثلاثاء فى الحجرة التى توفى بها فى بيت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وله من العمر ٦٣ سنة هجرية وثلاثة أيام (٦١ سنة و ٨٤ يوماً بالتقويم الميلادى) ، وهى الحجرة التى نعرفها اليوم بالروضة الشريفة .

* *

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « لما تُوُفِّى رسول الله ﷺ قام عمر فقال : إنّ رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفى ، وإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم - والله - ما مات ، ولكنه قد ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عنهم أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل مات ، ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ بعد حين كما رجع موسى ، فليقطعنّ أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات .

قال : وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد - حين بلغه الخبر - وعمر يكلم الناس - فلم يلتفت إلى شئ ، حتى دخل على رسول الله ﷺ فى بيت عائشة ، ورسول الله ﷺ مُسَجًّى فى ناحية البيت وعليه برد حِبَرة ، فأقبل حتى كشف عن وجهه ، ثم أقبل عليه فَقبَّله ، ثم قال : بأبى أنت وأمى ، أما الموتة التى كتبها الله عليك فقد ذُقْتَها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً .

ثم رد البرد على وجهه وخرج - وعمر يكلم الناس - فقال : على رِسْلك يا عمر ، أنصت . فأبى إلا أن يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبلَ على

---

(١) رواه البيهقى فى دلائل النبوة .

الناس ، فلما سمع الناس كلام أبى بكر أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إنه مَن كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله تعالى ، فإن الله حى لا يموت ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْله الرُّسُلُ ، أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١) .

قال : فواللّه لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، وأخذها الناس عن أبى بكر ، فإنما هى فى أفواههم .

قال أبو هريرة : فقال عمر : فواللّه ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعثرتُ حتى وقعتُ إلى الأرض ، ما تحملنى رجلاى ، فاحتملنى رجلان ، وعرفتُ أن رسول اللّه ﷺ قد مات (٢) .

* *

● وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال : لما اجتمع القوم لغسل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وليس فى البيت إلا أهله : عمه العباس بن عبد المطلب ، وعلىّ بن أبى طالب ، والفضل بن العباس ، وقثم بن العباس ، وأسامة بن زيد ابن حارثة ، وصالح مولاه .

فلما اجتمعوا ، نادى من وراء الباب أوس بن خولى الأنصارى ، ثم أحد بنى عوف بن الخزرج - وكان بَدْرياً - علىّ بن أبى طالب فقال له : يا علىّ ، نشدتك اللّه ، وحظنا من رسول اللّه ﷺ . قال : فقال له علىّ : ادخل ، فدخل فحضر غسل رسول اللّه ﷺ ، ولم يل من غسله شيئاً .

قال : فأسنده إلى صدره وعليه قميصه ، وكان العباس والفضل وقثم يقلبونه مع علىّ بن أبى طالب ، وكان أسامة بن زيد وصالح مولاهما يصبان الماء ،

(١) آل عمران : ١٤٤ (٢) رواه ابن إسحاق .

وجعل علىّ يغسله ، ولم يُرَ من رسول الله ﷺ شئ مما يُرى من الميت ، وهو يقول : بأبى وأمى ، ما أطيبك حياً وميتاً .

حتى إذا فرغوا من غسل رسول الله ﷺ ، وكان يُغسَّل بالماء ، والسدر ، جففوه ، ثم صُنِع به ما يُصنع بالميت ، ثم أدرج فى ثلاثة أثواب : ثوبين أبيضين ، وبرد حِبَرَةٍ ..

ثم دعا العباس رجلين فقال : ليذهب أحدكما إلى أبى عبيدة بن الجراح - وكان أبو عبيدة يضرح لأهل مكة - وليذهب الآخر إلى أبى طلحة بن سهل الأنصارى - وكان يلحد لأهل المدينة - قال : ثم قال العباس لهما حين سرَّحهما : اللّهم خِرْ لرسولك . قال : فذهب ، فلم يجد صاحب أبى عبيدة أبا عبيدة ، ووجد صاحب أبى طلحة أبا طلحة ، فجاء به فلحد لرسول الله ﷺ (١) .

* *

● وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما مات رسول الله ﷺ أدخل الرجال فصلُّوا عليه بغير إمام أرسالاً حتى فرغوا ، ثم أدخل النساء فصلين عليه ، ثم ادخل الصبيان فصلُّوا عليه ، ثم أدخل العبيد فصلُّوا عليه أرسالاً ، لم يأمهم على رسول الله ﷺ أحد (٢) .

● وعن أبى حازم المدنى : أنَّ رسول الله ﷺ حين قبضه الله عَزَّ وجَلَّ ، دخل المهاجرون فوجاً فوجاً يصلُّون عليه ويخرجون ، ثم دخلت الأنصار على مثل ذلك ، ثم دخل أهل المدينة ، حتى إذا فرغت النساء فكان منهن صوت وجزع كبعض ما يكون منهن ، فسمعنا هزة فى البيت يعرفنا فسكتن ، فإذا قائل يقول : « إنَّ فى الله عزاء من كل هالك ، وعوض عن كل مصيبة ، وخلف من كل فائت ، والمجبور مَن جبره الثواب ، والمصاب مَن لم يجبره الثواب » (٣) .

* *

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٢٣٥٧) .

(٢) رواه ابن إسحاق .

(٣) البداية والنهاية : ٥/٢٧٧

● وعن ابن جريج - عبد الملك بن عبد العزيز - قال : أخبرنى أبى : أن أصحاب النبى ﷺ لم يدروا أين يقبرون النبى ﷺ ، حتى قال أبو بكر : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « لن يُقبر نبى إلا حيث يموت » ، فأخَّروا فرشه وحفروا له تحت فراشه (١) .

* *

● وعن أنس رضى الله عنه قال : لما كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شئ ، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شئ ، قال : وما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدى حتى أنكرنا قلوبنا (٢) .

● وعنه رضى الله عنه قال : لما ثقل النبى ﷺ جعل يتغشاه الكرب ، فقالت فاطمة : واكرب أبتاه . فقال لها : ليس على أبيكِ كرب بعد اليوم .

فلما مات قالت : « وا أبتاه ، أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه ، فى جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه ، إلى جبريل ننعاه » .

فلما دُفِن ، قالت : « يا أنس ، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب » ؟! (٣) .

وكان ثابت البنانى - رضى الله عنه - إذا حدَّث بهذا الحديث بكى حتى تختلف أضلاعه .

* *

● وعن أنس رضى الله عنه أيضاً قال : ذهب رسول الله ﷺ إلى أم أيمن زائراً ، وذهبتُ معه ، فقرّبت إليه شراباً ، فإما كان صائماً ، وإما كان لا يريده فرده ، فأقبلت على رسول الله ﷺ تضاحكه .

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٢٧) .

(٢) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حديث صحيح غريب .

(٣) رواه البخارى .

فقال أبو بكر بعد وفاة النبى ﷺ : انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها ، فلما انتهيا إليها بكت ، فقالا لها : ما يبكيك ؟ ما عند الله خير لرسوله . قالت : والله ما أبكى أن لا أكون أعلم أنّ ما عند الله خير لرسوله ، ولكن أبكى أن الوحى انقطع من السماء .

فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان [٢] .

* *

● ولم يترك صلى الله عليه وسلم ديناراً ولا درهماً ، بل مات وكانت درعه مرهونة عند يهودى على ثلاثين صاعاً من شعير ، أخذها صلى الله عليه وسلم رزقاً لعياله .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى ﷺ التفت إلى « أُحد » فقال : « والذى نفس محمد بيده ، ما يسرنى أن « أُحُداً » يحول لآل محمد ذهباً أنفقه فى سبيل الله ، أموت يوم أموت أدع منه دينارين ، إلا دينارين أعدهما لدَيْن إن كان » .

فمات صلى الله عليه وسلم وما ترك ديناراً ولا درهماً ، ولا عبداً ولا وليدة ، وترك درعه مرهونة عند يهودى على ثلاثين صاعاً من شعير [١] .

صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته عليك يا سيدى يا رسول الله ، ما أطيبك حياً ، وما أطيبك ميتاً .

* * *

(١) رواه البيهقى .

(٢) رواه أحمد فى المسند (٢٧٢٤) .

obeikandl.com

الخاتمـــة

حلاوة الإيمـــان

● محبة الرسول ﷺ وتوقيره من تمام الإيمان :

للإيمان طعم .. ولهذا الطعم حلاوة .

هذا الطعم وهذه الحلاوة لا يذوقهما إلا مَن عرفهما ، وهو مَن رضى باللّه تعالى رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

ذلك هو المؤمن - وإن وقع فى الذنوب وسقط فى المعاصى - إذ معنى : « رضيتُ بالشئ » : أننى قنعتُ به ، واكتفيتُ به ، ولم أطلب معه غيره .

فمَن لم يطلب غير اللّه تعالى ، ولم يسع فى غير طريق الإسلام ، ولم يسلك إلا ما يوافق شريعة محمد ﷺ .. مَن كانت هذه صفته فقد خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه وذاق طعمه .

عن العباس بن عبد المطلب رضى اللّه عنه ، أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول : « ذاق طعم الإيمان مَن رضى اللّه رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً »[1] .

يقول القاضى عياض : « معنى هذا الحديث : صح إيمانه واطمأنت به نفسه وخامر باطنه ، لأن رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته ونفاذ بصيرته ومخالطة بشاشته قلبه .. لأن مَن رضى أمراً سهل عليه ، فكذا المؤمن ، إذا دخل قلبه الإيمان سهل عليه طاعات اللّه تعالى ولذّت له »[2] .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ، طبع دار الشعب : ١/٢٠٨

وعن أنس رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث مَن كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : مَن كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف فى النار » (١) .

ولا تصح المحبة لله تعالى ولرسوله ﷺ حقيقة ، وحب الآدمى فى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وكراهة الرجوع إلى الكفر ، إلا لمن قوى بالإيمان يقينه ، واطمأنت به نفسه ، وانشرح له صدره ، وخالط لحمه ودمه .. وهذا هو الذى وجد حلاوة الإيمان .

يقول القاضى عياض : « والحب فى الله ، من ثمرات حب الله .. قال بعضهم : المحبة مواطأة القلب على ما يرضى الرب سبحانه ، فيحب ما أحبه ويكره ما كره ، واختلفت عبارات المتكلمين فى هذا الباب بما لا يؤول إلى اختلاف إلا فى اللفظ » .

وبالجملة : أصل المحبة الميل إلى ما يوافق المحب ، ثم الميل قد يكون لما يستلذه الإنسان ويستحسنه : كحسن الصورة ، والصوت ، والطعام ... ونحوها .

وقد يستلذه بعقله للمعانى الباطنة ، كمحبة الصالحين والعلماء وأهل الفضل مطلقاً .

وقد يكون لإحسانه إليه ودفعه المضار والمكاره عنه .

وهذه المعانى كلها ، موجودة فى النبى ﷺ ، لما جمع من جمال الظاهر والباطن ، وكمال خلال الجمال وأنواع الفضائل ، وإحسانه إلى جميع المسلمين بهدايته إياهم إلى الصراط المستقيم ، ودوام النِعَم والإبعاد من الجحيم .

وقد أشار بعضهم إلى أنَّ هذا مُتصوَّر فى حق الله تعالى ، فإن الخير كله منه سبحانه وتعالى .. قال مالك وغيره : المحبة فى الله من واجبات الإسلام » (٢) .

---

(١) رواه الشيخان واللفظ لمسلم .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى : ٢١٧/١ ، ٢١٨

إذن .. فمعنى حلاوة الإيمان : استلذاذ الطاعات ، وتحمل المشقات فى رضا اللّه عَزَّ وجَلَّ ورسوله ﷺ ، وإيثار ذلك على عرض الدنيا .. ومحبة العبد ربه سبحانه وتعالى بفعل طاعاته ، وترك مخالفته . وكذلك تكون محبة رسوله ﷺ .

والمحبة تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

- محبة اجلال وإعظام .. كمحبة الوالد .

- ومحبة شفقة ورحمة .. كمحبة الولد .

- ومحبة مشاكلة واستحسان .. كمحبة سائر الناس .

وقد جمع الرسول اللّه ﷺ أصناف المحبة فى محبته ، يقول ابن بطال : « إنَّ مَن استكمل الإيمان ، علم أن حق النبى ﷺ آكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين ، لأن به صلى اللّه عليه وسلم استُنْقِذنا من النار ، وهُدِينا من الضلال » .

ويقول القاضى عياض : « من محبته صلى اللّه عليه وسلم : نصرة سُنَّته ، والذب عن شريعته ، وتمنى حضور حياته فيبذل ماله ونفسه دونه ، وإذا تبين ما ذكرنا ، تبين أن حقيقة الإيمان لا يتم إلا بذلك ، ولا يصح الإيمان إلا بتحقيق الملاء قدر النبى ﷺ ومنزلته على كل والد وولد ، ومحسن ومفضل .. ومَن لم يعتقد هذا واعتقد بسواه ، فليس بمؤمن » .

وعن أنس رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » (١) .

وفى رواية : « ... حتى أكون أحبُّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين » .

يقول الخطابى : « لم يرد به حب الطبع ، بل أراد به حب الاختيار .. لأن حب الإنسان لنفسه طبع ، ولا سبيل إلى قلبه .. فمعناه : لا تصدق فى حبى حتى تفنى فى طاعتى نفسك ، وتؤثر رضاى على هواك وإن كان فيه هلاكك » .

---

(١) رواه الشيخان ، واللفظ لمسلم .

والإيمان بالرسول ﷺ ، يحرِّم صاحبه على النار ..

عن أنس رضى اللّه عنه قال : إنَّ النبى ﷺ - ومعاذ بن جبل رديفه على الرحل - قال ثلاثاً : « يا معاذ » .. ويجيبه معاذ رضى اللّه عنه : لبيك يارسول اللّه وسعديك . وفى الثالثة يقول صلى اللّه عليه وسلم : « ما من عبد يشهد أنْ لا إلٰه إلّا اللّه ، وأنَّ محمداً رسوله ، إلا حرَّمه اللّه على النار » . قال : يا رسول اللّه ، أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا ؟ قال : « إذن يتكلوا » .. فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً [1] .

وكما يحرِّم الإيمان بالرسول اللّه ﷺ صاحبه على النار ، فإن عدم الإيمان به يوجب لصاحبه النار ، فعن أبى هريرة رضى اللّه عنه ، عن الرسول ﷺ أنه قال: « والذى نفس محمد بيده ، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة - يهودى أو نصرانى - ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلتُ به إلا كان من أصحاب النار » [2] .

يقول النووى : « فيه نسخ الملل كلها برسالة نبينا صلى اللّه عليه وسلم ، وفى مفهومه دلالة على أنَّ مَن لم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور ، وهذا جار على ما تقدَّم فى الأصول أنه لا حكم قبل ورود الشرع على الصحيح ، واللّه أعلم .

وقوله صلى اللّه عليه وسلم : « لا يسمع بى أحد من هذه الأمة » ، أى ممن هو موجود فى زمنى وبعدى إلى يوم القيامة ، فكلهم يجب عليه الدخول فى طاعته .. وإنما ذكر اليهودى والنصرانى تنبيهاً على مَن سواهما ، وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب ، فإذا كان هذا شأنهم مع أنَّ لهم كتاباً ، فغيرهم ممن لا كتاب له أولى ، واللّه أعلم » [3] .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى : ٣٦٩/١

والناس عادة لا يحبون ما جهلوا ، ولا يرضون إلا بما عرفوا .. حتى لقد قيل إنّ : « الناس أعداء لما جهلوا » ، ولهذا لم ير أبو جهل وأضرابه فى الرسول ﷺ إلا « يتيم بنى هاشم » !!

ومن هنا كانت معرفة الرسول ﷺ - بلا غلو ولا مغالاة - من ألزم الأمور للرضا والحب ، وبدونهما لا يتم إيمان المؤمن .

ونقصد بعدم الغلو أو المغالاة : ألا نغلو مع الغالين فنقول قولة أبى جهل : « ما هو إلا يتيم بنى هاشم » !!

ولا نغالى مع المغالين فنقول قولة محيى الدين بن عربى : « المهاجر من مكة إلى المدينة كان اللّه ، وما كان معه أحد ثان » !!

إنما نقول من منطلق الحب والرضا ، النابعين عن المعرفة الحقيقية : « إنه - صلى اللّه عليه وسلم - عبد اللّه ورسوله ، أرسله تعالى رحمة للعالمين ، ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط اللّه المستقيم » .

* *

وتعظيم الرسول ﷺ وتوقيره أول ثمرة للمعرفة والحب .. وقد أمرنا اللّه تعالى بهما وفرضهما على المؤمنين باللّه ورسوله .. يقول جَلّ شأنه : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * لِّتُؤْمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (١) .

يقول القرطبى : « قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ﴾ قال قتادة : على أمتك بالبلاغ . وقيل : شاهداً عليهم بأعمالهم من طاعة أو معصية . وقيل : مبيناً لهم ما أرسلناك به إليهم . وقيل : شاهداً عليهم يوم القيامة ، فهو - صلى اللّه عليه وسلم - شاهد أفعالهم اليوم ، والشهيد عليهم يوم القيامة ،

---

(١) الفتح : ٨ - ٩

﴿ وَمُبَشِّراً ﴾ لمن أطاعه بالجنة ، ﴿ وَنَذِيراً ﴾ من النار لمن عصى .. قاله قتادة وغيره .

وانتصب : ﴿ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ على الحال المقدَّرة ، فالمعنى : إنَّا أرسلناك مقدَّرين بشهادتك يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أى تعظموه وتفخموه - قاله الحسن والكلبى - والتعزيز : التعظيم والتوقير .

وقال قتادة : تنصروه وتمنعوا منه ، ومنه « التعزير فى الحد » لأنه مانع . وقال ابن عباس وعكرمة : تقاتلون معه بالسيف . وقال بعض أهل اللغة : تطيعوه .

وقوله جلَّ شأنه : ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أى تسوِّدوه - قاله السدى ، وقيل : تعظموه . والتوقير : التقدير والتزين أيضاً ، والهاء فيهما للنبى ﷺ ، وهنا وقف تمام ، ثم تبتدئ : ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ أى تسبحوا الله ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ : أى غدوة وعشياً » (١) .

فاللَّهم ربنا وإلهنا ومليكنا : ثبتنا برحمتك على محبتك ومحبة رسولك ، والرضا بك وبرسولك ، وثبتنا على تعظيمه - صلى الله عليه وسلم - وتوقيره . فإننا قد رضينا بك رباً ، وبالإسلام ديناً ، و بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

اللَّهم فاجعله دائماً أحب إلينا من آبائنا وأولادنا وأموالنا ، ومن الناس أجمعين .. آمين .. آمين .. آمين .

* * *

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، مرجع سابق .

بقيت كلمة .. ولا أدرى لماذا أخذت تلح فى الإفصاح عنها بعد أن طويتها فى صدرى أعواماً طويلة ..

فمنذ ما يقرب من العشرين عاماً ، رأيتُ - فيما يرى النائم - كأننى أقف فى مسجد رسول اللّه ﷺ ، ولم يكن العهد به كما هو عليه اليوم ، بل كان على حالته فى عهده الأول ، مسجد متواضع ، مبنى بالطوب اللّبن مدعم بجريد النخيل ، لا سقف له يقيه برد الشتاء أو حر الصيف ، والرمال والحصباء تفترش أرضه .. هكذا رأيت المسجد !!

وإذا بسيدنا رسول اللّه ﷺ يؤم المصلين ، وكان موقعى فى الصف الثانى من المصلين ، ووقع فى خلدى أن رجلاً يقف خلف رسول اللّه ﷺ فى الصف الأول مباشرة يبغى بالرسول ﷺ شراً .

وركزت انتباهى كله نحو الرجل ، عازماً على الحيلولة بينه وبين الشر الذى يبغيه للرسول اللّه ﷺ .

وإذا بسيدنا رسول اللّه ﷺ يستدير نحو الصفوف ، ثم يفسح الصف الأول بيديه ، ويضع يده الشريفة على كتفى الأيمن مقدِّماً إياى إلى الصف الذى يليه فى مكان ذلك الرجل الذى أثار شكوكى ، بينما أزاحه إلى الموضع الذى كنت أقف فيه بالصف الثانى .. وصليتُ خلف سيدنا رسول اللّه ﷺ فى مكانى الجديد بالصف الأول .

ولا تسل عما كنت عليه عندما أفقت من نومى ، فقد كانت تنتابنى أجمل الأحاسيس وأرق المشاعر بعد أن ملأت قلبى الغبطة والسكينة وغمرت روحى السعادة ، وأحسستُ - وأنا فى وعيى ويقظتى - كأنما أسبح فى الهواء ولا أمشى على الأرض .

وعرضت رؤياى على رجل فاضل - الشيخ حسن زيدان رحمه اللّه - فأوّلها بأن اللّه تعالى سوف ييسر لى القيام بعمل أخدم به سُنّة رسول اللّه ﷺ ، وأن قوى الشر والنفاق سوف تندحر أمام ذلك العمل الذى سوف ييسرنى اللّه له .

وتساءلت عن كُنْه ذلك العمل ، فبشرنى بأننى سوف أقوم بوضع كتاب يخدم السُنَّة ويقضى على البدعة .. ولم أكن فى ذلك الحين قد اتجهتُ إلى الكتابة ، بل كان كل جهدى قاصراً على التحقيق والتصحيح لبعض دور النشر التى كنت أتعامل معها ، ولم يكن الأمر يعدو - فى بعض الأحيان - كتابة تعليق أراه ضرورياً ، أو إضافة حاشية أجدها لازمة ، أو شرح لبعض الألفاظ أو المعانى التى ترد فى تلك المصنفات مما يجب شرحه ويستلزم بيان معناه .

وتعجبتُ لهذه البُشرى !! فمَن أكون أنا حتى أكتب فيما يخدم السُنَّة ويقضى على البدعة .. إن شأنى - عند نفسى - لأضأل من هذا العمل بكثير !!

ولكن الشيخ رحمه اللّه أصرّ على تأويله لرؤياى بقوله : سوف ترى .

ومرت أعوام تلتها أعوام ، حتى كان عام ١٩٨٤ عندما وجدت اللّه تعالى يوفقنى لوضع كتاب « من وصايا القرآن الكريم » [١] ، استلهمتُ فيه وصايا لقمان الحكيم كما جاء بها القرآن العزيز ، وتحدثت فيه عن : الحكيم والحكمة - أولى الوصايا : توحيد الألوهية - البر بالوالدين - المرجع إلى اللّه - عالِمُ الغيب والشهادة - الصلاة والزكاة وأحكامهما - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - الصبر على المكاره والطاعات - الكِبْر والاختيال - التواضع من صفات الرسل .. وتحدثتُ فى الفصل الأخير منه عن القدوة العليا فى حياة الرسول ﷺ ، كما عرضت لجوانب من أخلاقه صلى اللّه عليه وسلم فتحدثت عن حلمه ، وشفقته ، وحياؤه ، وجوده ، وكرمه ، وصبره ، وشكره ، واجتهاده ، وورعه ، وتوكله ، وخوفه ، وبكائه ، وشجاعته ، وبركاته - عليه من اللّه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

وظننت وقتها - أن هذا الكتاب هو العمل الموعود ، خاصة وأنه قد لاقى نجاحاً فوق ما كنت أتصور ، فبرغم ضخامة عدد صفحاته التى زادت على الـ (٨٦٤ صفحة) ، وبرغم أنه كان لكاتب غير معروف فى سوق الكتب وقت

---

(١) قامت بنشره دار التراث العربى عام ١٩٨٤ وبلغت صفحاته (٨٦٤ صفحة) .

إصداره و فقد نفدت طبعته الأولى فى أقل من عام ، بل وقامت إحدى دور النشر فى لبنان بتزويره [١] ، ثم أعيد طبعه [٢] بعد زيادات وإضافات وتنويهات فى عام ١٩٨٧ .. كل ذلك بفضل اللّه وحده ..

ثم رأيتُ اللّه تعالى يمن علىَّ مرة أخرى بوضع كتاب : « اللّه توحيد .. وليس وحدة » [٣] ، وتحدثت فيه عن عقيدة التوحيد عند أهل السُنّة ، مقابلاً بها عقيدة وحدة الوجود عند متفلسفة الصوفية ، وكانت فصوله تتحدث عن ماهية التصوف الإسلامى - نشأة التصوف وتطوره - القول بوحدة الوجود - مذهب الصوفية فى التفسير الباطنى للقرآن الكريم - موقف الصوفية من الوحى والنبوة - ما هى الولاية والمعجزة والكرامة - ادعاء العلم بالغيب وانكشاف الحُجُب - تعظيم القبور وتقديس المقبورين - نظرات فى مسألة التوسل والوسيلة - حلقات للذكر أم حفلات للزار - كما تحدثت عن الضلالات والانحرافات التى شابت التصوف الإسلامى فى عصوره المتأخره - وناديتُ بالكلمة السواء التى دعانا إليها اللّه تعالى : ألّا نعبد إلّا اللّهَ وحده ، وأن لا نشرك به شيئاً .... إلخ .

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٦ ، ومرة أخرى ظننتُ أن هذا هو العمل الموعود .

وفى عام ١٩٨٦ قرأت فى إحدى الصحف اليومية [٤] التى تصدر فى القاهرة مقالين يتهجم فيهما كاتبهما على السُنّة النبوية الشريفة ، وينفى وجود معجزات حسيَّة للرسول اللّه ﷺ ، وأن معجزته الوحيدة كانت هى القرآن الكريم ، نافياً كل ما جاء فى كتب السيرة من معجزات حسيَّة أوتيها سيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم (!!) .

---

(١) قامت بتزويره دار الندوة بلبنان عام ١٩٨٥

(٢) وقامت بنشره دار التراث العربى ، وبلغت صفحاته (٨٩٦ صفحة) .

(٣) قامت بنشره مكتبة وهبة عام ١٩٨٦ وبلغت صفحاته (٥٠٤ صفحة) .

(٤) جريدة الجمهورية القاهرية - العدد (١١٥٩٥) فى ١٩٨٥/٩/٢٨ ، والعدد (١١٨٠٨) فى ١٩٨٦/٤/٢٧

أحسستُ فور إطلاعى على هذين المقالين بالضيق والغيظ يملآن جوانحى ، أهكذا تُهاجَم سيرة رسول اللّه ﷺ وتُلغَى من صفحات التاريخ أمجاد وأمجاد ، تواتر على ذكرها أجيال وأجيال ؟!

وبماذا ؟ بمقالة أو مقالتين تظهران فى إحدى الصحف اليومية ؟!

أيكون الرسول اللّه ﷺ أقل شأناً من إخوانه الرسل الذين أتى اللّه تعالى على أيديهم بالمعجزات الحسيَّة ؟!

وكيف يجرؤ كاتب يدين بالإسلام على هذا الادعاء الكبير وأن يقدم على هذا الادعاء الكبير ؟! كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً !!

وأويتُ إلى فراشى والأسى يأخذ بخناقى ، ويكتم أنفاسى فلا شك أن هذه مقدمة لها ما بعدها ، ولا شك أن السُنَّة كلها مستهدفة من وراء هذه المقدمة الخطيرة ..

وفى تلك الليلة - التى لا أنساها ما حييت - رأيت فيما يرى النائم كأننى أقف إلى جوار ضريح سيد الشهداء الحسين بن علىّ رضى اللّه عنهما وسِبْط رسول اللّه ﷺ .

ورأيت سيدنا رسول اللّه ﷺ يقف إلى جهة القِبْلة إلى جوار الضريح ، كأنما هو خارج منه .. ولكن يالروعة ما رأيت .. لقد كان صلى اللّه عليه وسلم يملأ بقامته المديدة فراغ المسجد كله ، حتى لقد تقاصرت قبة المسجد عن قامته .. ولم أر منه صلى اللّه عليه وسلم سوى قدميه الشريفتين ، ورأيتنى مكباً عليهما مُقَبِّلاً إياهما والبكاء يغلب علىّ ، لا أردد سوى عبارة واحدة هى : يا رسول اللّه .. يا رسول اللّه . بينما البكاء والنحيب يأخذان بخناقى ، وقبلاتى لقدميه الشريفتين تتوالى وتتوالى ، حتى أفقت من نومى وأنا على هذه الحال .

هنا رأيت البُشرى واضحة جلية ، فإن قامة رسول اللّه ﷺ تتقاصر عن الوصول إليها هامة أعظم الرجال .. ومكانته صلى اللّه عليه وسلم عند اللّه وعند الناس أكبر من أن يحط من شأنها مخلوق .. وسنته صلى اللّه عليه وسلم أرسخ من أن يهزها حاقد ، أو يزعزعها موتور ، أو يُهوِّن من شأنها قصير نظر .

ووجدتُ اللّه تعالى يشرح صدرى للكتابة فى هذا الموضوع : المعجزات الحسية للرسول ﷺ - فشرعتُ فى الكتابة منذ أكثر من أربعة أعوام ، إلا أن ظروفاً طرأت علىّ وأخذت كل وقتى وجهدى حتى أنستنى ما شرعتُ فيه ، خاصة حين فقدتُ الصفحات التى سطرتها فى شأنه !!

إلى أن كان ذلك اليوم من عام ١٩٩١ ، عندما عثرت - عن طريق الصدفة وحدها - على تلك الصفحات المفقودة ، وفى مكان عاودتُ فيه البحث والتنقيب أكثر من مرة !!

وكان التيسير من اللّه تعالى لأداء هذا العمل المتواضع ، فقد وجدتُ المراجع تتسابق بين يدىّ لكى أنهل منها ما يشاء اللّه تعالى .. ووجدتُ الصورة تتضح أمامى كاملة ، وإذا بى أجد العمل فى الكتاب ميّسراً بفضل اللّه وتوفيقه ..

وكان هذا الكتاب .. تحية متواضعة ، أضعها عند قدمى سيدنا رسول اللّه ﷺ ، عسى أن تنال بعض رضاه ، وأن أنال بها شفاعته يوم لا شفيع سواه ..

واللّه تعالى أسأل أن يتقبل عملى هذا ، وأن يجعله فى الميزان : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

ويا سيدى يا رسول اللّه .. تقبل بكرمك وفضلك عملى هذا المسرف فى التواضع ، ولا تردنى عن بابك خائباً .. وعسى أن يكون كتابى هذا هو البُشرى التى بشرتنى بها منذ أكثر من عشرين عاماً .. عليك يا سيدى صلوات اللّه وسلامه ، ورحمته وبركاته ، يا مَن قلت وقولك الصدق : « إنما أنا رحمة مهداة » .. رحمنا اللّه بك ، وأدخلنا فى حظيرة قربه ورضاه .

هذه هى الكلمة التى رأيت أن أضمنها خاتمة لكتابى ، والتى لا أدرى لماذا أخذت تلح فى الإفصاح عنها بعد أن طويتها فى صدرى أعواماً طويلة .. وعلى اللّه قصد السبيل .

ورحم الله أمير الشعراء شوقى حيث يقول فى نهج البردة :

يَارَبِّ صَـلِّ وَسَلِّـمْ مَا أُرِدْتَ عَلَـى ... نَزِيـلِ عَرْشِـكَ خَيـرِ الرُّسْلِ كُلِّهِمِ

مُحْيِـى اللَّيَالِـى صَـلاَةً ، لا يُقَطِّعُهَا ... إلا بِدَمْـعٍ مِـنَ الإشْفَاقِ مُنْسَجِمِ

مُسَبِّحـاً لَكَ جُنْـحَ اللَّيْلِ ، مُحْتَمِلاً ... ضُـرّاً مِنَ السُّهْدِ ، أَوْ ضُرّاً مِنَ الْوَرَمِ

رَضِيَّـةً نَفْسُـهُ ، لا تَشْتَكِى سَأَماً ... وَمَا مَـعَ الحُـبِّ إنْ أخْلَصْتَ مِنْ سَأَمِ

وَصَـلِّ رَبِّـى عَلَـى آلٍ لَهُ نُخَبٍ ... جَعَلْتَ فِيهِـمْ لِوَاءَ الْبَيْتِ وَالْحَرَمِ (١)

بِيضُ الْوُجُـوهِ ، وَوَجْهُ الدَّهْرِ ذُو حَلَكٍ ... شُمُّ الأُنُوفِ ، وَأَنْفُ الحَادِثَاتِ حَمِى (٢)

وَأَهْـدِ خَيْـرَ صَـلاةٍ مِنْـكَ أَرْبَعَةً ... فِـى الصَّحْبِ ، صُحْبَتُهُمْ مَرْعِيَّةُ الْحُرَمِ

الرَّاكِبِيـنَ إذَا نَـادَى النَّبِـىُّ بِهِمْ ... مَا هَالَ مِنْ جَلَلٍ ، وَاشْتَدَّ مِنْ عَمَمِ (٣)

الصَّابِـرِينَ وَنَفْـسُ الأَرْضِ وَاجِفَـةٌ ... الضَّاحِكِيـنَ إلَى الأَخْطَارِ وَالقُحَمِ (٤)

يَارَبِّ ، هَبَّـتْ شُـعُوبٌ مِـنْ مَنِيَّتِهَا ... وَاسْتَيْقَظَتْ أُمَـمٌ مِـنْ رَقْـدَةِ الْعَدَمِ

سَعْـدٌ ، وَنَحْسٌ ، وَمُلْكٌ أَنْتَ مَالِكُهُ ... تُدِيـلُ مِـنْ نِعَـمٍ فِيهِ ، وَمِنْ نِقَمِ

رَأْىُ قَضَـاؤُكَ فِينَـا رَأْىُ حِكْمَتِـهِ ... أَكْـرِمْ بِوَجْهِـكَ مِـنْ قَاضٍ وَمُنْتَقِمِ

فَالْطُفْ لأَجْـلِ رَسُـولِ الْعَالَمِينَ بِنَا ... وَلا تَـزِدْ قَوْمَـهُ خَسْفَـاً ، وَلا تَسُمِ

يَارَبِّ ، أَحْسَنْتَ بَـدْءَ الْمُسْلِمِيـنَ بِهِ ... فَتَمِّـمِ الفَضْـلَ ، وَامْنَحْ حُسْنَ مُخْتَتَمِ

* * *

---

(١) النخب : جمع نخبة ، وهو الرجل المختار .

(٢) الحلك - محركة : شدة السواد ، والشمم فى الأنف : ارتفاع القصبة وحسنها ، وهو هنا كناية عن الحمية وشرف النفس ، وأنف الحادثات حمى : كناية عن اشتداد الخطب واستفحال الأمر .

(٣) هاله الأمر هولاً : أفزعه ، والجلل هنا : الأمر العظيم ، والعمم : التام العام من كل أمر ، يقال : أمر عمم ، أى تام كامل .

(٤) القُحَم : جمع قُحمة - بالضم ، ومن معانيها : الأمر الشاق لا يكاد يركبه أحد ، وهو المراد هنا .

﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ ، إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (٢) .

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (٣) .

* * *

(١) البقرة : ٢٨٦ (٢) آل عمران : ٨ - ٩ (٣) آل عمران : ١٩١ - ١٩٤

أهم المراجع

١ - إثبات نبوة النبى - لأبى الحسن الهارونى الزيدى - نشر دار التراث العربى .

٢ - أسْد الغابة فى معرفة الصحابة - لابن الأثير - نشر دار الشعب .

٣ - إظهار الحق - للشيخ رحمة الله الهندى - نشر دار التراث العربى .

٤ - الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام - نشر دار التراث العربى .

٥ - الله .. توحيد وليس وحدة .. للأستاذ محمد الأنور أحمد البلتاجى - نشر مكتبة وهبة .

٦ - البداية والنهاية - لابن كثير - نشر مكتبة المعارف ببيروت .

٧ - تفسير القرآن العظيم - لابن كثير - نشر دار الشعب .

٨ - تلبيس إبليس - لابن الجوزى - نشر المؤسسة السعودية المصرية .

٩ - الجامع الصحيح - للترمذى - نشر دار الفكر للطباعة والنشر ببيروت .

١٠ - الجامع الصحيح - للإمام مسلم - نشر دار التحرير بالقاهرة .

١١ - الجامع لأحكام القرآن - للقرطبى - نشر دار الشعب .

١٢ - حياة الصحابة - للكاندهلوى - نشر دار التراث العربى .

١٣ - حياة محمد - للدكتور محمد حسين هيكل - نشر دار المعارف .

١٤ - الرحيق المختوم - للشيخ صفى الدين المباركفورى - نشر دار النشر للثقافة والعلوم الإسلامية .

١٥ - الرسالة القشيرية - للقشيرى - مطبعة التقدم العلمية .

١٦ - الرصف لما روى عن النبى ﷺ من الفعل والوصف - لمحمد بن عبد الله العاقولى - نشر مكتبة التوعية الإسلامية .

١٧ - زاد المعاد فى هَدْى خير العباد - لابن القيم - نشر المطبعة المصرية ومكتبتها .

١٨ - سنن أبى داود ، نشر شركة مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده .

١٩ - السيرة النبوية - لابن هشام - نشر دار التراث العربى .

٢٠ - الشوقيات - لأمير الشعراء أحمد شوقى - نشر دار الفكر العربى ببيروت .

٢١ - صحيح البخارى - للإمام البخارى - نشر دار الشعب .

٢٢ - صحيح مسلم بشرح النووى - نشر دار الشعب .

٢٣ - الطبقات الكبرى - لابن سعد - نشر دار التحرير بالقاهرة .

٢٤ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى - للنووى - نشر دار الريان للتراث .

٢٥ - فقه السيرة - للشيخ محمد الغزالى - نشر دار الكتب الإسلامية .

٢٦ - فى ظلال القرآن - للشهيد سيد قطب - نشر دار الشروق .

٢٧ - القرآن الكريم .

٢٨ - الكتاب المقدس - نشر دار الكتاب المقدس بالقاهرة .

٢٩ - لسان العرب - لابن منظور - نشر دار المعارف ،

٣٠ - محاضرات فى مقارنة الأديان - للأستاذ إبراهيم خليل أحمد - نشر دار المنار .

٣١ - مختصر تفسير ابن كثير - اختصار وتعليق الشيخ محمد كريم راجح - نشر دار المعرفة ببيروت .

٣٢ - مختصر تفسير الطبرى - اختصار وتعليق الشيخ محمد على الصابونى ، والدكتور صالح أحمد رضا - نشر دار التراث العربى .

٣٣ - مختصر سيرة الرسول - للإمام محمد بن عبد الوهاب - نشر مكتبة السُنَّة المحمدية .

٣٤ - المسند - للإمام أحمد بن حنبل - نشر دار التراث الإسلامى .

٣٥ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - للشيخ محمد فؤاد عبد الباقى - نشر دار الشعب .

٣٦ - من وصايا القرآن الكريم - للأستاذ محمد الأنور أحمد البلتاجى - نشر دار التراث العربى .

٣٧ - الوحى والقرآن الكريم - للشيخ محمد الذهبى - نشر مكتبة وهبة .

٣٨ - وضح النهج - للشيخ سليم البشرى - على نهج البردة نظم أمير الشعراء أحمد شوقى - نشر مكتبة الملك فيصل الإسلامية .

.... وهناك مراجع أخرى أوردناها بالهوامش ولم نوردها هنا خوف الإطالة .

* * *